"أثر البيئة في الأدب النجفي"
في القرن التاسع عشر
"دراسة مقارنة"

الأستاذ الدكتور
محمد حسن علي مجيد
الكُلّية الإسلاميَّة الجامعة / النجف الأشرف

أثر البيئة في الأدب النجفي في القرن التاسع عشر "دراسة مقارنة"

الأستاذ الدكتور
محمد حسن علي مجيد
الكلية الإسلامية الجامعة / النجف الأشرف

فكرة البحث:

يكادُ يُجمعُ مُؤرِّخو الأدب والباحثون على أنَّ الأدبَ هو ابنُ البيئة[١]، أو هو نتاجُ تفاعل الأحداث مع البيئة، فهو يصطبغ بألوانها ويتأثَّرُ باتِّجاهاتها ومن ثمَّ يُؤثِّرُ فيها، ويُؤكِّدُ العلمُ الحديث هذه الحقيقة حتَّى يجعل البيئة تُنازع عامل الوراثة في أثره[٢]؛ لأنَّ لكُلِّ بيئةٍ مزاياها وخصائصها التي تطبع الأدب بطابعها وتتركُ عليه بصماتها واضحة، فمهما يشتطُّ الأديب في تفرُّده وطُغيان ذاته في أدبه، فلن يكونَ بمنجًى من التأثُّر بما حوله بشكلٍ أو بآخر؛ لأنَّ الأدب مرآةٌ تنعكسُ عليها مظاهرُ البيئة أو بمعنى آخر أنَّ الأدبَ تعبيرٌ أو إفصاحٌ عمَّا تثيرهُ ظواهرُ الحياة العامَّة في نفس الأديب.

ومن دراستنا لأدب المُدن العراقيَّة في القرن التاسع عشر، وجدنا أنَّ الأدب فيها قد تأثَّرَ بطبيعة الحياة القائمة ونوع البيئة التي عاش فيها، حتَّى تميَّزت كلُّ مدينةٍ عراقيَّةٍ بنوعٍ من الأدب أو بغرضٍ من الشعر يختلفُ عن الأغراض التي أجادت فيها المُدُن الأخرى؛ وذلك تبعًا لظروفها وبيئتها التي تركت بصماتها واضحةً على وجه الأدب فيها، فطَبعتهُ بطابعها وأملَتْ عليه شؤونها وشجونها.

ولغرض أنْ تكونَ الفكرةُ واضحةً، نحاولُ أنْ نستعرِضَ (بإيجاز) نوعَ الأدب أو الشعر الذي امتازت به كلُّ مدينةٍ عراقيَّةٍ من المُدُن التي كانت منابعَ

لـلأدب في تلـك الحُقبـة، وأكثرهـا وأجودهـا وأنضـجها شـعراً، وهـي بغـداد والنجف والحلَّة والموصل، حتَّى نتبيَّنَ أثرَ بيئة (النجف) على أدبها وبالأنواع الأدبيَّة التي كَثُرَت ونضجت ونالت فيها تميُّزاً وأصالةً وتفوُّقًا وحُسنًا وفنًّا على غيرها من مُدُن العراق بدراسةٍ مُقارنةٍ سريعة.

نظرة في الحياة العامَّة:

وبكثيرٍ من الإيجاز نُلقي ضوءاً على نوع الحياة التي عاشها العراق بشكلٍ عامٍّ وكلِّ مدينة بشكلٍ خاص في تلك الحقبة؛ لنتبيَّنَ أثرَ تلك الحياة على الأدب في كُلِّ واحدةٍ منها.

لقد كان المجتمع العراقي في هذه الحقبة يعيش في حالة من الفوضى والاضطراب، وقد نخرت فيه الآفات وفرَّقتهُ الأهواء واقتسمته مطامع الولاة والمُوظَّفين، واحتشدت فيه الديانات والمذاهب والقوميَّات، فخضع لمؤثِّراتها، حتَّى جعلت من العراقيين مواطنين ذوي طبائع مختلفة ومدن متباينة تتميَّز كلٌّ منها بميزات خاصَّة تبعًا لساكنيها وعاداتهم وظروفهم وديانـاتهم وتقاليدهم، وبسبب تعسُّف الحُكَّام وفرض الضرائب الفادحة وأخذ الغرامات وسلوك أساليب البطش والتنكيل والإرهاب، وبسبب سياسة (فرِّق تسُد)، وباستخدام بطانة فاسدة من الجلاوزة والمُتزلِّفين[٣]، حتَّى غدت البلاد مرتعًا للِّصوص وقُطَّاع الطُرُق، فانكمش الناسُ في مُدُنهم وقُراهم... إنَّ ظروف حياة العراق العامَّة هذه، وحُكم الولاة المُتخبِّط وسياسة التمييز والتفرقة التي اتَّبعها الحُكَّام حينذاك، جعل العراقيين يعيشون في حالة من التباعد وخلق لكُلِّ مدينةٍ عراقيَّةٍ طابعًا خاصًّا بها، واتَّسمت بسلوكٍ مُعيَّنٍ وأسلوب في الحياة والمعيشة والتعامل مع السلطة يختلف عن أساليب المُدُن الأخرى؛ لذلك عاش معظمُ العراقيين في حالةٍ من اليأس والعُزلة والفراغ والكآبة[٤]، فمدينة بغداد – مثلاً- كانت مركز الولاية ومقرَّ الحُكَّام والمُوظَّفين الكبار، فسُكَّانُها – على هذا

الأساس- أكثرُ اتّصالاً بالحياة العامَّة وبالسياسة والإداريِّين والمُوظَّفين الكبار وضُبَّاط الجيش كما يسكن بغداد عادَّة أصحاب الثروة وأهل النفوذ وذوو العلاقة الوثيقة مع الحُكَّام، ومنهم من يُختار – في الغالب- المُوظَّفون العراقيُّون ممَّن كانت الدولة تسمحُ لهم بالتوظُّف في بعض الوظائف المُهمَّة، كمناصب الإفتاء والقضاة، فضلاً عمَّن كان يُختار من أبناء هذه الطبقات للدخول إلى المدارس العسكريَّة ومن ثمَّ تخرّجهم ضُبَّاطًا يتولُّونَ زمام البلاد فيما بعد[٥].

إذن فالناسُ في بغداد – والشعراءُ منهم بشكلٍ خاص- كانوا أكثرَ اهتمامًا بالأمور العامَّة، وأشَدَّ التصاقًا بالسياسة وأحداثها بحُكم هذا القُرب من مركز الحكومة، سواءٌ من كانَ منهم للسُلطة والحُكَّام مادحًا لهم سائرًا في ركابهم، أو من كانَ مُعارضًا لهم ناقمًا عليهم ثائرًا ضدَّهم، لذلك ازدهرَ (الشعر السياسي) في بغداد وتعدَّدت موضوعاتُهُ وكثُرَت قصائدُهُ، وصدقتْ عواطفُهُ، فأجادت بغداد فيه كمًّا وصُوَرًا وقُوَّةً ممَّا لم تستطع مدينة عراقيَّة أنْ تُباريها في هذا الميدان.

أمَّا (الحِلَّة والنجف) فقد ابتعدتا عن السياسة وشؤونها بشكلٍ عام، بل لنقل إنَّهما أُبعِدَتا عن الحُكم والسُلطان وعن المُشاركة في حُكم البلاد، فـ(الحِلَّة) كانت مدينةً مُنكمشةً على نفسها لا تثقُ بالولاة، مجتنبةً ما يتعلَّقُ بشؤون المُوظَّفين والحُكَّام المُتعسِّفين في حُكمهم، مُقاطعين لدوائر الدولة إلاَّ عند الضرورة؛ لذلك انطوت على نفسها، وصارت تُنفِّسُ عن همومها في مجالس التأبين والعزاء، فهيَّأت لها ظروفها هذه الإجادة في فنِّ (الرثاء) ما لم يوجد مثله في كثرته وقوَّته وحرارته وصدق عاطفته في أيَّة مدينة عراقيَّة غير الحِلَّة.

أمَّا (النجف) فقد ابتعدت هي الأُخرى عن السياسة وشؤونها وحُرِم أبناؤها من التوظُّف في دوائر الدولة؛ لذلك أحسَّ أبناؤها بفراغٍ ويأسٍ

وضجر، فراح النجفيُّون يُزجون أوقات فراغِهم باصطناع الحبِّ ويدفنون همومهم تحت ركامٍ من قصائد الغزل التقليدي، وانتقال مجالس الخمر والندمان والشراب، وسيلٍ من المُداعبات والمُساجلات الإخوانيَّة والطرائف والهزل؛ لذلك كانت النجف رافعةً راية (شعر الغزل والفُكاهة) في الأدب العراقي في هذه الحقبة دون منازع، ممَّا سوف نُفصِّلهُ فيما بعد.

أمَّا (الموصل) فقد عُرِفَت من عصورٍ سابقة باتِّجاهها الديني وكثرة أهل الزُهد والتصوُّف؛ لذلك ترسَّخ فيها هذا الاتِّجاه وكُثُرَ فيها شعرُ الزهد والتصوُّف وشعر المدائح النبويَّة ومدح الأنبياء والخلفاء وشعر مديح آل البيت ومدائح أصحاب الطُرُق الصوفيَّة ومشايخها؛ لذلك ازدهرَ فيها هذا النوع من الشعر وكثُرَت موضوعاته وتميَّز شعراؤها فيه بالصدق والأصالة والكثرة.

الموضوعات السياسية بين شعر بغداد وشعر النجف وأثر البيئة فيهما:

ذكرنا أنَّ بغداد تميَّزت من غيرها من مدن العراق الأخرى باتِّصالها بالحُكَّام وبكثرة الشعر السياسي فيها ونضجه بسبب الظروف المُهيَّأة لها ممَّا لم تستطع أيَّةُ مدينة عراقيَّة أنْ تُباريها في هذا الميدان، وبرز فيها شعراء سياسيُّون كبار من أشهرهم عبد الغني جميل، وصالح التميمي، وعبد الغفَّار الأخرس، وعبد الباقي العُمري، وغيرهم بين مُؤيِّدٍ للسُلطة، سائرٍ في ركابها، مادحٍ للحُكَّام فيها، وبين مُعارضٍ لها.

فممَّن يُمثِّلُ شعر المعارضة الجريئة في بغداد ضدَّ الحُكَّام مُفتي بغداد الشاعر (عبد الغني جميل) الذي تولَّى قيادة انتفاضة البغداديِّين على الوالي (علي رضا باشا) سنة ١٨٣٤م، في قصائد كثيرة، منها قصيدتهُ التي أظهرَ فيها جزعه من تعسُّف الحُكَّام في الناس في بغداد والتي كتبها إلى صديقه العلاّمة أبي الثناء الآلوسي من دمشق بعد فراره إليها عقب فشل الانتفاضة، وأظهرَ فيها شكواه لما آل إليه أمرَ بغداد على أيدي الجائرين والمُتعسِّفين، وممَّا كان يُعانيه أهلُها من

عَنَتٍ وجورٍ، قال في قسمٍ منها:

لهفي على بغـداد مـن بلـدةٍ ... قد عشعشَ العـز بهـا ثـم طـار
كانتْ عروسـا مثـلَ شـمس ... لمسـتعيرٍ حليهـا لا يعـار
حل بها قوم وهـم فـي عمـى ... مـا ميـزوا أشـرارها والخيـار
وأصبح الفِـرد بهـا مقتـدى ... قد سجد الليـثُ بهـا للحمـار[٦]

ولعلَّ قليلاً من شعراء العراق مَن كانَ جريئًا في نقده للحُكَّام مثل هذا الشاعر البغدادي، كما ينقد شاعرٌ بغداديٌّ آخرُ التُركَ نقداً جريئًا صريحًا، هو الشاعر (السيد صالح القزويني بغدادي) في قصيدةٍ طويلة، يقول في مطلعها:

وكم لملوكِ التُركِ هتك لِحرمـةٍ ... لأهل النهى والهتـك مِـن شِـيمِ

ولا أظنُّ أحتاجُ بعد هذا المطلع إلى ذكر المزيد من أبياتها، فالقصيدة مقروءةٌ من عُنوانها الواضح في النقد السياسي الصريح الجريء، ممَّا لا نجد نظيرًا لها في شعر الهجاء السياسي في غير بغداد، بل إنَّ الشاعر عبد الغفَّار الأخرس، وهو من كبار شعراء السُلطة والمُوالين لها هجا حُكَّام بغداد بعد أنْ طفحَ به الكيل وضاق صدرُهُ من ظُلمهم وعدم تقديرهم لأهل الفضل من الناس، وهم لا يفقهونَ طريق مكرمة، وقال إنَّهم (بقر) - كذا- قال في قصيدةٍ له

بلـد كبـار ملوكِـهِ بقـر ... صـاروا ولاةَ النهـي والأمـر
لا يفقهـون حـديثَ مكرمـةٍ ... فيهـزهم نظمـي ولا نثـري[٨]

هذه الأمثلة المُقتضبة التي تُمثِّلُ الجانب الثائر المُعارض للدولة، الراصد لمساوئ الحُكَّام... على أنَّ هناكَ الوجه الآخر من شعر بغداد السياسي، المُؤيِّد للسُلطة المادح للولاة والحُكَّام بمختلف درجاتهم، وهو كثيرٌ أيضًا على أنَّ أكثرَ

القصائد المُمالئة للحُكَّام جاءت – في الغالب- تحمل صدق الودِّ لهم وحرارة العاطفة وقوَّة التأييد؛ لأنَّهم كانوا عمومًا مُرتبطين بهم وينالون عطاياهم ويتسلَّمونَ مُكافآتهم أو كانوا هم مُوظَّفين في الدولة، (فالشاعر صالح التميمي) مثلاً الذي وُلِدَ في الكاظميَّة ونشأ في النجف، وعاش في الحلة، استدعاه الوالي (داود باشا) إلى بغداد، وعيَّنه في وظيفة رفيعة في الولاية وبقِيَ مُوظَّفًا فيها[٩]؛ لذلك عندما فتح الوالي (علي رضا باشا) قلعة أربيل وضربَ أهلها عدَّ التميميُّ هذا الفتحَ أعظمَ من فتح المُعتصم لقلعة عمورية، حين قال في قسمٍ منها

لا ترو عن فتح (عموريةٍ) خبرا ... ففتح أربيلَ ما أبقى لها أثرا
لو أن (معتصما) تعدوه صارخةٌ ... بقطر أربيلَ عن إدراكها قصرا
سن الوزير (علي) في العلى ... كأنما شاء أن يستخبر الوزرا
مولى له السعد فيما شاء ... كما رأينا عليه العفو مؤتمرا
يعفو ويصفح عن جانٍ جنى ... أغنى وبعد الغِنى يلقاه معتذرا[١٠]

أمَّا الشاعر (عبد الباقي العمري) الذي كانَ مُحبًّا لآل البيت والذي نظَمَ ديوانًا كاملاً في مدحهم سمَّاه (الباقيات الصالحات)، فإنَّهُ يُهنِّئُ الوالي (نجيب باشا) في حملته على مدينة كربلاء واجتياحه لها في ثاني أيَّام عيد الأضحى من عام (١٨٤٢م)، وقتله العشرات من أهلها حتَّى من لاذَ بمرقد الإمام الحُسين (عليه السلام)، ويُسمِّيهم (أهل الرفض)، وقد صادفت الحملة مع ورود الأمر السُلطاني بتثبيت نجيب باشا واليًا على بغداد فيُهنِّئهُ بالمُناسبتين بقصيدةٍ طويلة، منها قولُهُ:

بك العراقُ أحرز الأمانيا ... لما تقررتَ عليه واليا

فذاك السلطان سيفَ حكمِهِ فقُمتَ فيه آمرا وناهيا

إلى أنْ يقول:

مهدتَ بالهندي يوم كربلا هنديةً فاندرستْ مجاريا

فقد تركت (الرفض) فيها جفتْ سواقيهِ فماتَ صاديا[11]

ولعلَّ الاندماجَ بالجوِّ السياسي يبدو أوضح لدى الشاعر (عبد الغفَّار الأخرس) في موقفه من حملة كربلاء وبطشه بأهلها من قصيدة عبد الباقي العمري الذي كانَ مُوظَّفًا كبيرًا في الدولة، وكذلك قد لا نستغربُ من موقف العمري، ولكن الاستغراب قد يكون أكثرَ غرابةً من موقف العمري، فعلى الرغم من أنَّه لم يكن مُوظَّفًا في الدولة، إلاَّ أنَّ قصيدته التي نظمها بعد حادثة اجتياح كربلاء جاءت أشَدَّ عُنفًا وأكثرَ حماسًا في تأييدِ الوالي في اجتياح المدينة وقتل أهلها على الرغم ممَّا قيل عن تشيُّعهِ ونسبه العلوي.

قال مادحًا الوالي (نجيب باشا) وهاجيًا أهالي كربلاء ومُؤرِّخًا الحادثة:

لقد خَفَقَتْ في النحر ألويةُ النصر وكان انمحاقُ الشر في ذاك النحر

وفتح عظيم يعلم اللهُ أنه ليستصغر الأخطار من نُوبِ الدهر

محا البغي صمصام الوزير كما محا دجى الليل في أضوائه مطلع الفجر

فراحت بها الأجساد وهي طريحةٌ تداس على ذنبٍ جنَتْه لدى الوزر

فلاذوا بقبر ابن النبي محمد فهل سر في تدميرهم صاحب القبر

ولا زال في عيدٍ جديد مؤرخاً (فقد جاء يوم العيد بالفتح

(١٢٥٨هـ)[12]

هذه أمثلةٌ مختصرة من الشعر السياسي في بغداد.

أمَّا في (النجف) فلا نجد فيها من الشعر السياسي ما وجدناهُ في بغداد، ولعلَّ من المُناسب أنْ نذكُرَ أنَّ الشاعرَ محمد سعيد الحبُّوبي أكبرَ شعراء النجف في هذه الحقبة الذي بدأ حياته شاعراً مُبدعًا، ثمَّ دارسًا ومُدرِّسًا للعلم، ثمَّ مرجعًا دينيًّا كبيرًا، ثُمَّ مُجاهدًا في سوح الوغى وهو يذود الأجنبيَّ عن حياض الوطن، ليس في ديوانه المطبوع البالغ (٦١٩ صفحة) بيتٌ واحدٌ من الشعر السياسي، أمَّا إذا استعرضنا دواوين شعراء النجف الآخرين، فإنَّنا سنجدُها هي الأخرى يندرُ فيها هذا اللون من الشعر... ولعلَّ أجرأ بيتٍ من الشعر السياسي النجفي ما قاله الشاعر إبراهيم بحر العلوم في هجاء حاكم النجف، حين قال:

بلـدٌ بـه يرشـى علانيـةً ... والمرتشـي هـو حـاكم البلـدِ

إلاَّ أنَّه ممَّا يُقلِّلُ من الأهميَّة السياسيَّة لهذا البيت أنَّ الشاعر نفذ لهجاء حاكم النجف من خلال قصيدة مدَحَ بها والي بغداد وتظلَّم وشكا له حاله وبعض شؤونه، بأسلوب فيه تذلُّل وخضوع، فضلاً عن ركَّة الأبيات وتخلخل الأسلوب، حين قال في أوَّلها

والـي الـولاةِ إليـك مظلمتـي ... أشـكو بعـين الواحـدِ الأحـدِ

لرواقك الشاكون قد عمدوا ... ورواق عدلك مشرع العمدِ[١٣]

وفي ديوان السيِّد إبراهيم هذا ثلاث قصائد سياسيَّة فحسب من مجموع (٢٢٠) قصيدة[١٤] كلُّها مدح ومُجاملة لبعض حُكَّام النجف وليس في ديوان موسى الطالقاني الذي يقع في (٤٣٤) صفحة من الشعر السياسي غير قصيدة واحدة[١٥]، أمَّا ديوانُ الشاعر محسن الخُضَري الذي يقع في (١٩٦) صفحة فلم

يحو غير بيتين من الشعر السياسي مدح بهما مُتصرِّفَ الحلَّة[١٦]، على حين انعدمَ هذا اللون من الشعر انعدامًا تامًّا في ديوان الشاعر عبَّاس مُلاَّ علي النجفي[١٧].

موضوعات الغزل والفُكاهة بين شعر النجف وشعر بغداد والحِلَّة والموصل:

ذكرنا: أنَّ بغداد انشغلت بالسياسة وأحداثها، فأجادت في الشعر السياسي، وأنَّ الحِلَّة أُضِيمَتْ فذادت همومَها بالبُكاء ودفنت أحزانها تحتَ رُكامٍ من قصائد (الرثاء)، واتَّجَهت الموصل إلى الموضوعات الدينية والمدائح النبويَّة، وتفرَّغت لها وأجادت فيها.

أمَّا (النجف) فحين ابتعدت عن السياسة أو أُبعِدتْ عن المُشاركة في الحياة العامَّة وفي إدارة شؤون البلاد، فإنَّها دارت همومها باصطناع الغزل ونفَّستْ عن آلامها بالفُكاهة والمزاح والهزل واصطناع مجالس الخمر، ووصف أشكالها وألوانها، ولو استعرضنا دواوين الشعر النجفي ومجاميعه الشعريَّة، لوَجَدنا أنَّ (الغزل والفكاهة والخمر) وهي أبرزُ أغراضها، هذه الأغراض التي بدأت لدى شعراء النجف في أوائل هذا القرن تقليديَّة يُقصَدُ بها تزجيةُ الوقت وقتلُ الفراغ، فإنَّه بالممارسة والإلحاح فيه اعتاده الناس وقَبِلَه الوجهاء وعلِيَةُ القوم، ولاسيَّما في مطالع قصائد المديح والتهنئة بالزواج أو الحج وأمثالهما، وانساق الناسُ وراء هذا التيار، إذا هو يغدو بعد فترةٍ وجيزة طبعًا في النجفيِّين، وصرنا نقرأ بعد ذلك في سيرة بعض شعراء النجف من عُرِفَ باللهو والغرام والهيام بالحُسن والجمال أينما لمحه ولاح له[١٨]، بل عُرِفَ في النجف من الشعراء من أحبَّ حُبًّا حقيقيًّا وأخلصَ لمحبوبةٍ واحدة اشتُهِرَ بحُبِّها كما سنوضِّحُهُ فيما بعد[١٩]، ولم يكن من باب الاجتهاد أنْ يقول الأستاذ محمد مهدي البصير عن الشاعر الحبُّوبي النجفي: ((وعندي أنَّهُ أغزلُ شعراء عصره على الإطلاق))[٢٠]؛ لأنَّه كذلك، ويتَّضحُ هذا من أشعارِهِ الغزليَّة مُقارنةً بغزل

شعراء عصره، لذلك حقَّقَ النجفيُّون سبقًا في هذا الفنِّ وأغنَوهُ صُوَرًا وبعثوا فيه حياةً لم تكن في الغزل العراقي وأنَّ شعراءها حازوا فيه قصبَ السبق، وأخذوا بزمامهِ دون شعراء المدن العراقيَّة الأخرى، وأنَّ النجفَ في هذا العصر كانت هي رافعةً للواء الفُكاهة والغزل وشعر اللهو والهزل دون غيرها من مدن العراق.

وهنا سيدور سؤالٌ في الذهن: كيف يمكن أنْ تكونَ النجفُ رافعةً للواء الفُكاهة والغزل العراقي في هذا العصر، في الوقت الذي عُرِفَت أنَّها كانت مركزًا من أكبر مراكز الدراسات الإسلاميَّة، وأنَّها مقرٌّ لمرجعيَّةٍ دينيَّةٍ عُليا في العراق وفي العالم الإسلامي؟!

الجواب: هو الاستعداد الكامن في نفوس النجفيِّين في حبِّ الظرف والنُكتة والميل إلى المرح والفُكاهة، ثمَّ في الظروف السياسيَّة والاجتماعيَّة التي ذكرناها، وللفراغ الكبير الذي كانوا يعيشونَ فيه، فضلاً عمَّا توفَّر لهم من يسارٍ وثروة، فقد كانت الكثير من الأُسَر النجفيَّة ذات أملاك وبساتين تدرُّ عليهم الأرباح، كما أنَّ الجاليات والنازحين إلى النجف يفدون إليها بثرواتهم الماديَّة فيستفيد منها سُكَّان النجف، كما كانت تفيد من تجارتها الواسعة مع بادية الشام والحجاز وبُلدان الخليج العربي وإيران وغيرها، فضلاً عن موارد أخرى تأتي إلى النجف كالحقوق الشرعيَّة، وما ينفقه آلاف الزائرين سنويًّا الذين يفِدونَ النجف، فضلاً عن كون النجف مدفنًا لكثيرٍ من المُسلمين، وهذا يقتضي صرفَ أموالٍ ونفقات، كلُّ هذه الموارد الماديَّة أسهمت في إثراء أبناء مدينة النجف، وجعل معيشتها ميسورة، وجعل حياتها سهلةً، والمعروفُ أنَّ الفراغَ والشبابَ والغِنى واليأسَ من المُشاركة في الحياة العامَّة كلَّها تقودُ إلى اللهو والعبث وربَّما إلى المجون، تمامًا مثلما حدثَ لأبناء الحجاز في القرن الأوَّل الهجري أيَّام الدولة الأُمويَّة حين قام الفقه والتفسير والحديث إلى

جانب اللهو والغزل والعبث بسبب تشابه الظروف الموضوعيَّة لكلا البيئتين، كما جمع بين غزل النجف وغزل الحجاز شبهٌ آخر، هو أنَّ كليهما كانَ عفيفًا لم يبلغ حدَّ المجون والاستهتار، فمن المعروف أنَّ غزل الحجاز في العصر الأموي كان يجنح إلى التمسُّك بالآداب العربيَّة؛ لأنَّ السُلطة كانت تُراقب أبناء المُهاجرين والأنصار، وتنظر لهم بكثيرٍ من الحذر؛ لأنَّهم لم يكونوا يدينون لها بالولاء والطاعة، ولكنَّها تركتْ لهم فُسحةً من الحُرِّية لما لبلاد الحجاز وأهلها حينذاك من المكان والقُدسيَّة، كما أنَّ شعراءهم كانوا ينتسبون إلى أُسر شريفة من قُرَيش وغيرها ممَّا لا تسمح لهم التقاليد والأخلاق العربيَّة والإسلاميَّة بتجاوزها أو الخروج في اللهو إلى حدِّ المجون أو العبث بالأعراض وهكذا الحال لدى شعراء النجف فإنَّ غزلهم على كثرته وتنوُّعه لم يبلغ حدَّ المجون أو الاستهتار أو العبث بالأعراض لما للمدينة من مكانةٍ مُتميِّزة، ولَّما لأُسَر أولئك الشعراء من الشرف الرفيع وسموِّ المنزلة ما يمنعهم من الانسياق وراء المجون أو الغزل الخليع، بل كانَ ذلك واضحًا في سلوكهم وشعرهم معًا، ممَّا جعل الحالتين مُتشابهتين في كلٍّ من الحجاز والنجف، فالشاعرُ إبراهيم بحر العلوم - مثلاً- كان له من خفَّة طبعه التي خلقت منه صورةً مُصغَّرةً لعمر بن أبي ربيعة من حيث حُبِّه للجمال وافتنانه به، والذي تأسره الصبابة وتستهويه المَلاحةُ لم ينته إلى فسقٍ أو مجون؛ لأنَّ الدين كان يملكُ عنان نفسه ويكبحُ جماح رغبته. فغزلُهُ لم يكن يُسيءُ إلى سُمعةِ أحد، وهكذا سائر شعراء النجف.

ولعلَّ ممَّا ساعدَ أيضًا على كثرة شعر الغزل ونضجه في النجف أنَّ النجفيَّ لم يكن محرومًا من رُؤية المرأة على الرغم من احتجاب المرأة العراقيَّة في مجتمع القرن التاسع عشر وابتعادها عن مجالس الرجال، فقد كانَ يؤمُّ النجفَ سنويًّا الآلافُ من الزائرين والدارسين، ومعهم عوائلهم، فكانَ منظر النساء في النجف مألوفًا في المنازل والأسواق وأماكن الزيارة ومحطَّات النقل من أجناس

مختلفة وما فيهنَّ من حُسنٍ وملاحة وجمالٍ وصباحة، ممَّا يوقظُ العاطفة ويزيد الشوق ويُثيرُ كوامن النفس، فإذا أضفنا إلى ما ذكرناه من فراغ الشباب وثراء الكثير منهم، واليأس من المُشاركة في الحياة العامَّة، أمكننا أنْ نُدركَ سببَ كثرة أشعار الغزل ونضجها وتنوُّعها. وقد انعكست مظاهرُ الغزل والفُكاهة واللهو في النجف في الأمور الآتية:

- كثرة شعر العزل ونضجه وجمال صوره.
- شيوع روح الفكاهة والدعابة والمُساجلات الإخوانيَّة.
- كثرة شعر الخمر وجمال صوره.
- شعر اللهو ووصف مجالس الأُنس.

وسوف نُحاول أنْ نتناولَ كلَّ واحدٍ منها بالكثير من الإيجاز.

كثرة شعر العزل ونضجه وجمال صوره:

لقد احتلَّ الغزل وشعرُ الحبِّ مكانًا واسعًا في الشعر النجفي، وأنَّ الكثيرَ من ذلك الغزل يحوي عواطفَ حقيقيَّة، وزفرات حارَّة، والقسم الآخر تقليدي، إلاَّ أنَّه يحوي صوراً جميلةً وخيالاً عذبًا وأساليب طريفة، ممَّا يجعل قراءته مُمتعة ودراسته مفيدة، ممَّا يُصوِّرُ نوع الحياة الاجتماعيَّة التي كانَ يحياها النجفيُّون في القرن الـ١٩، وتنعكس عليها بيئتهم، وأمامنا دواوين شعراء النجف فهي بالدرجة الأُولى أشعار غزل وكتب في شعر الحب، وسجِل في تصوير العواطف والذكريات، ومن أهمِّها دواوين كبار شعراء النجف كديوان الحُبُّوبي وإبراهيم بحر العلوم وعبَّاس مُلاَّ علي وموسى الطالقاني ومحسن الخُضري وغيرهم، وطبيعيٌّ أنَّ باحثًا يتحدَّثُ عن الغزل النجفي لا يستطيع أنْ يتخطَّى أكبرَ شعراء الغزل فيها محمَّد سعيد الحُبُّوبي (١٨٤٩-١٩١٥م) صاحب القصائد والمُوشَّحات الغزليَّة الشهيرة الذي يقف في المُقدِّمة في

هذا الفن، ونحن لا نستطيع في هذا البحث أنْ نعرضَ لذلك الحشد الضخم من غزل الحبُّوبي، لكنّنا نُحاولُ أنْ نذكرَ بسرعة واختصار بعض أشعاره العالية في الغزل، وبالتأكيد أنّي لا آتي بجديد إذا قُلت: إنَّ الحبُّوبي أفضلُ وشَّاحٍ عراقيٍّ في هذا القرن، إلاَّ أنَّ ما يهمُّنا من مُوشَّحاته تلك الروح الغزليَّة التي اكتنفتها، بل وأبانت عن أشواق حقيقيَّة وعواطف صادقة وذكريات واقعيَّة لا يستطيعُ الشكُّ أنْ يسري في أعصابها، وعلى الرغم من أنَّ كلَّ من درس الحبُّوبي عرضَ لمسألة صدق عاطفته أو افتعالها في موشَّحاته:

لا تخلْ ويك ومن يسمع يخلْ	أنني بالراح مشغوفُ الفُؤادِ
أو بمهضومِ الحشا ساهي المقلْ	أخجلتْ قامتُه سمر الصعادِ
أو بربــاتِ خـدور وكللْ	يتفننَّ بقُــربٍ وبعــادِ
أن لي من شرفي بردا ضفا	هو من دون الهوى مرتهني
غير أني رمتُ نهج الظُرفا	عفةَ النفس وفسقَ الألسن[٢١]

لكنَّني أزعُمُ أنَّ السيِّدَ الحبُّوبي عبَّرَ في الكثير من غزليَّاته عن ذكرياتٍ حقيقيَّة مرَّت به في شبابهِ، وما أُريدُ أنْ أُكذِّبَ الرجلَ في أقوالهِ، لكنِّي لا أرى تناقضًا بين ما أزعمُهُ من صدق عواطف الحبُّوبي وواقعيَّة ذكرياته، وبين ما ذكره من (عفَّة النفس)، فالشاعر لم يكن مشغوفًا بالنساء حين قال مُوشَّحته هذه في بداية قصيدة التهنئة بعد أنْ جازَ به عهدُ الشباب، وبدأ عهدُ الجدِّ والبحث والدرس، ولكن ماذا عن ذكرياته عندما كان يافعًا يتجوَّلُ في ربوعِ نجد مع أعمامهِ وأخوالهِ واصطحابهم لهُ في رحلاتهم التجاريَّة[٢٢]، ولعلَّ قراءةً مُتأنِّيةً لإحدى مُوشَّحاته التي عبَّر بها عن ذكرياتهِ في نجد أيَّام شبابه وتعلُّقه بواحدةٍ هناك ما يُرجِّحُ رأينا بصدق عاطفة الرجلِ حين صادفَ أنْ تحدَّثَ مع مجموعةٍ من فتياتٍ كانت له بينهنَّ واحدةٌ عُرِفَ بحُبِّها، إلاَّ أنَّها كانت تمتنعُ عن

مواصلته؛ لأنَّه شَبَّبَ بها وأذاعَ سِرَّها، فافتُضِحَ أمرُها، فاغتاظَت منهُ وآلَتْ ألاَّ تُكلِّمه أو تُقابله، لكن الفتيات صرنَ يسترضينها وهي تُمانعُ ويناشدنها وهي ترفضُ حتَّى لانت وضربت له موعداً في (ذي سلم)، ثمَّ وفَّت الحبيبة فوافتهُ ليلاً حين أسدلَ الليلُ ستورهُ، فحَجَبَ العاشقين عن أعينِ الوشاة ونعموا بليلةِ وصالٍ هانئة.

ولنستمع معًا إلى جانبٍ من تلك المُحاورة الغراميَّة الطريفة التي عاشها الشاعر لنستشِفَّ منها العاطفة الواضحة والروح الغنائيَّة العالية في مطلع موشَّحةٍ لتهنئة نفسه، هذه بعضُ مقاطعها:

لـــــي فـــــيهن غـــــزالٌ ربـــــرب
لـــيس لـــي غيـــر هـــواه مـــذهب
لا ولا عـــــــــــن دارهِ منقلـــــــــب

فأنـــا أتلـــع مـــا أن أتلعـــا ... وإذا أبطـــح أوطنـــتُ البطـــاح
فلكـــم أزمعـــتُ لمـــا أزمعـــا ... وأرحتُ العـيس لمـا أن أراح

قلـــن لـــي علـــك يـــا بـــادي الشـــجن
ذلـــك الصـــب (العراقـــي) الـــوطن
مولـــع القلـــب بتســـآل الـــدِمن

لســـتَ تنفـــك تحيـــي الأربعـــا ... ولكم عجت ضحى من سفح ضاح
قلتُ هـل تنكـرن صـبا مولعـا ... بذوات الأعين المرضى الصِـحاح

فلـــن يـــا (لســـم) امنحيـــه الغـــزلا
وصـــليه (فهـــو مـــن خيـــر المـــلا)
فانثنـــــت كبـــــرا وقالـــــت: لا، ولا

كان لـي سـر لديـه مودعـا ضـمن الكتمـان فيـه ثـم بـاح
ولقد شبب بـي حتـى سـعى بي في سـر التصـابي لافتضـاح

ثـــــم قـــــد ناشـــــدتها بالـــــذمم
وتلطفـــــــن بطيـــــــبي الكلـــــــم
قُلـــن لـــي: (الموعـــد فـــي "ذي ســـلم")

فـانتظر حارسـها أن يهجعـا ورعاة الحي أن تـأتي المـراح
وهزيـــع الليـــل أن ينهزعـــا وتهيج الروض أنفـاس الريـاح

فَأَتَـــتْ تُرسِـــلُ وصـــفًا ذا غُـــدر
ماحيـــا مـــا ســـحبته مـــن أثـــر
وهـــي نجـــم بـــل هـــلالٌ بـــل قمـــر

بل هي الشمس أضاءت مطلعـا وبدتْ والليلُ منشـور الجنـاح
ولقـد بتنـا نريـب المضـجعا بيننـا سـتر عفـافٍ ووشـاح

وأخـيراً يُطلِـقُ الرجـل زفراتـه حـين يسـرد حكايتـهُ، مُتحسِّـرًا علـى عصـر الشباب الذي فات وما فيه من ذكريات في ألمٍ شديد، فيقول:

والربـ ـ ـى أخضـ ـ ـلها دمـ ـ ـع الربـ ـ ـاب
فغـ ـ ـدت مخضـ ـ ـرة حمـ ـ ـر الهضـ ـ ـاب
حبـ ـ ـذا يـ ـ ـا حبـ ـ ـذا عصـ ـ ـر الشـ ـ ـباب

(كان لي فيـه هنـاً فانقطعـا) ببياض الشيب لا بيض الصفاح
ضاق بي من بعده مـا اتسـعا فلقد كـان شـفيعي للمـلاح[٢٣]

إنِّي لا أرى الشاعر إلاَّ أنَّهُ سطَّر صفحةً حقيقيَّةً من ذكرياته في نجد، وإلاَّ فما مغـزى توكيـده علـى أنَّـهُ (عراقـيُّ الـوطن) أي أنَّ مـوطنَ الحبيبـة لم يكـن في العراق، فذكَّرنَها صاحباتها بغُربة هذا العاشق ووجوب مُراعاة غربته والعطف عليه، ثمَّ في تنبيه الحبيبة أنَّ هذا العاشق هو (من خير الملا) ومن صفوة الناس ومن علياء قومه، فهو إذن يستحقُّ العناية والتقدير، ثـمَّ في زفراتـه الحارَّة التي أطلقهـا في المقطع الأخير وحسراته على أيَّام الشباب (حبَّذا يـا حبَّذا عصر الشباب) الذي كانَ له فيه (هناء فانقطع) والذي كانَ شفيعه للملاح، ثمَّ في كلِّ المُوشَّحة التي حوت نفثات حارَّة وعواطف ظاهرة، كـلُّ هـذا يُؤيِّد أنَّها وقـائع حقيقيَّة.. ثمَّ لو افترضنا جدلاً أنَّها ليست كذلك، ألا يدُلُّ ابتداعُها بهذا السبك المُحكم والأُسلوب المُؤثِّر والخيال الجميل – في الأقل- على روحٍ شعريَّةٍ ورغبةٍ في المرح والغزل لدى هذا الشاعر النجفي الظريف!!.

ثمَّ إذا كانَ الحبُّوبي قد هامَ بفتاة بدويَّة من نجد، فـإنَّ بعـض شـعراء النجـف قد هـاموا بالجمـال السـافر، فمـا أن يحـطَّ شـاعرٌ نجفـيٌّ في بغـداد، ويـرى المـرأة البغداديَّة السافرة الوجه والقوام حتَّى تلتهب مشاعرُهُ فيصفه وصفًا يـدلُّ علـى تأثُّرٍ شديد بمنظر المرأة السافرة وكلف بجمالها، وإعجابٍ بمفاتنهـا، وهـذا عائـدٌ إلى مـا في نفـوس النجفـيِّين مـن تعلُّـقٍ بالحُسْـنِ وحُـبٍّ للجمـال، فهـذا الشـاعر

(جعفر الشرقي) ينمُّ شعرُهُ على كلفٍ شديد بالجمال المسيحي السافر الذي رآهُ في بغداد، فيقول مُتغزِّلاً في قصيدةٍ طريفة، قال فيها:

حـــي أقمـــار النصـــارى   تَخِـــذَتْ فـــي الكـــرخ دارا
وظبـــاءٍ فـــي كنـــاس   مـــا تـــألفن النفـــارا
بـــي غريـــراتُ جفـــونٍ   هـــن كالســـيفِ غِـــرارا
أنـــتِ يـــا آيـــةَ عيســـى   بـــكِ أصـــبحنا نصـــارى(٢٤)

أمَّا محمَّد سعيد الحبُّوبي فيهيمُ بغزال الكرخ هيامه بغزالِ نجدٍ، حينَ يزورُ بغداد نازلاً عند أصدقائه فيها من آل كبَّة وغيرهم، ولكن الرجل يريد أنْ يستكملَ السرور بحضور الكأس، فيقول:

يا غزالَ الكرخِ وا وجدي عليك   كـاد سِـري فيـك أن ينهتِكـا
هذه الصهباء والكـأس لـديك   وغرامـي فـي هـواك احتنَكـا
فاسقِني كأسا وخُذْ كأسا إليـك   فلذيـذُ العـيش أن نشـتَركا
وإذا جدتَ بهـا مـن شَـفَتَيك   فاسقِنيها وخُـذِ الأولـى لكـا(٢٥)

أمَّا الشاعر (إبراهيم بحر العلوم)، فإنَّهُ يشبه عمرَ بنَ أبي ربيعة في حُبِّهِ للجمال وإعجابهِ به، فإنَّ في ديوانه المطبوع الذي يضمُّ (٢٢٢) قصيدة، فإنَّ (ثمانين) منها في شعر الغزل والحبِّ وحده، وسائر القصائد لبقيَّة الأغراض كلِّها، وإنِّي لَقَادرٌ أنْ أسوقَ عشرات من قصائد الغزل من ديوانه، لكنَّ هذا البحث لا يتَّسعُ لمثلِ هذا الطموح، إنَّما نذكرُ له مقطعًا من قصيدة طريفة له، يتشوَّقُ فيها إلى ابنهِ الذي كانَ في النجف عندما كان السيِّد إبراهيم يسكنُ الكاظميَّة للدراسة، وفي هذه القصيدة من جمال الصورة وطرافة المعاني ما لو أنَّنا حذفنا منها الإشارة إلى أنَّها في ابنهِ لكانت تُمثِّلُ شعرًا غزليًّا نفيسًا وأسلوبًا

عاليًا وموسيقى عذبة، قال في قسمٍ منها:

من لـي بضـم رشـيق قـدك ... وبلـ ـثم وردٍ ريـ ـاض خـ ـدك
إنـ ـي إذا هـ ـب النسيـ ـ ... ـ ـم أشـم منـه نسـيم وردِك
أصـ ـبو إذا سـ ـرتِ الصـ ـبا ... حمالـ ـةً نفحـ ـاتِ رنـ ـدِك
قسـ ـما بقـ ـدك صـ ـادقًا ... وإليتـ ـي قسـ ـما بقـ ـدك
ما خُنتُ عهـدك فـي الهـوى ... لا والهـ ـوى وقـ ـديم عهـ ـدِك
صـ ـب ألـ ـوب كعـ ـاطش ... حلأتَـ ـه عـ ـن عـ ـذْبِ وردِك
فَـ ـارفِقْ بِـ ـرق عاشِـ ـق ... متَعلـ ـق بِرقيـ ـق بـ ـردِك
لا تَبعـ ـدن فَعبرتـ ـي ... تَجـري عليـك بِطُـول بعـدِك[٢٦]

أمَّا السيِّد (موسى الطالقاني) الذي ذُكِرَ عنه أنَّه (كانَ عالمًا فاضلاً... إلاَّ أنَّهُ حصر نظمهُ بالغزل والتشبيب)[٢٧]، فإنَّهُ يجري وراءَ المِلاح، لكنَّهُ لا يعودُ منهنَّ إلاَّ مُثخنًا بالجراح:

يا قلب حتـى م وراء المِـلاح ... تصفقُ من وجـدِك راحـا بـراح
كم راعك الهجر وكـم جئتنـي ... من مرهفِ الأجفان تشكو الجـراح
جد الهوى يا قلب فـاجرع بـهِ ... كأس حِمامٍ ما بها مـن مـزاح[٢٨]

لكنَّ الشاعر (حسين الدجيلي ١٨٢٢- ١٨٨٧م) ينعمُ بليلةِ وصالٍ هانئة مع الحبيبة عندما تزورُهُ تحتَ جُنح الظلام، فيرقصُ قلبُهُ فرحًا حتَّى يلثُمَ خطوَها، ثمَّ يضمُّها بعُنفٍ حتَّى يقطعَ عِقدَها وينثُرُ لآلئهُ، حين يقول:

زارتْ وقد ملأ الـدلالُ ثيابهـا ... عذراء أحسن ما رأيـتُ شـبابها
من بعدما هجر الركاب وأُطفِئَتْ ... نـار السـمير وأغفَلَـتْ رقابهـا

مذعورةً حذر الرقيـب كأنهـا ... نظـرتْ حبائـلَ قـانص فأرابهـا
فلثمتُ موطئَ خطوها ولو انني ... أنصفتُها حسـبا سـففتُ ترابهـا
وضممتُها حتى نثرتُ عقودهـا ... ولثمتُها حتى أمطـتُ نقابهـا[٢٩]

أمَّا الشاعر (جعفر كمال الدين الحِلِّي) الذي وُلِدَ في قرية السادة ونشأ في الحِلَّة، ثمَّ دخل إلى النجف في شبابه وأقامَ فيها بقيَّة عمرهِ حتَّى وفاته فيها سنة (١٨٩٧م)، فقد تأثَّر بروح الغزل النجفي وأخيلته وطرافته، فهو حينًا يرسمُ صورةً مُمتعةً للحبيبة المواتية التي ترهقها عين الرقيب وهي تتسلَّلُ عند الغلس إلى حبيبها بهذه الأبيات التي تتَّسِمُ بلُطفِ النغم وجمال الوقع ورِقَّة الجرس وطرافة المعنى، حين قال:

بالغَلس انسـلتْ إلـى حبيبهـا ... تخطـو وعيناهـا إلـى رقيبهـا
سـاحبةَ الأبـرادِ فـي مراتـع ... أرجاؤهـا تضـوعتْ بطيبهـا
فَرشْتُ أحشـائي لهـا لكننـي ... خشيتُ أن تُحرقَ مـن لهيبهـا[٣٠]

أيَّةُ صورةٍ جميلةٍ هذه في البيت الأوَّل، وأيُّ خيالٍ مُرهَف صاغها وهو يرصُدُ الفتاةَ العاشقة وهي تخطو بحذرٍ مشوبٍ بقلق وخوفٍ مُتسلِّلةً تحت جُنح الظلام لتوافي الحبيب، وأيُّ تجديدٍ في الصورة عندما تكونُ الفتاةُ هي المُتلهِّفة للقاء الحبيب، وما في الأبيات الأخرى من طرافةٍ لا تخفى على القارئ.

ولكن تلك كانت (الحبيبة النجفيَّة) التي أخلَصَتْ لحبيبها ووافته، ولكن (نساء السماوة) لسن كذلك، فقد فتكنَ بالسيِّد الحِلِّي، وسللنَ سيوفَ لحاظهنَّ عليه من غير ذنبٍ جناه، وبغير رحمة؛ لذلك جأرَ بالشكوى، واستغاث بأهل السماوة يطلب الحماية والأمان، حين قال:

أيا أهـلَ السـماوةِ خبرونـي أما فـيكم فتًـى يـأوي المخوفـا
فتاك ظباؤكُم مـن غيـر ذنـبٍ علـي لحاظُهـا سـلت سـيوفا
وما كُنا مـن العشـاق حتـى نزلنـا فـي بلادِكـم ضـيوفا[٣١]

والشعرُ الرائق من الغزل النجفي كثيرٌ جدًّا، لا يمكنُ لملمتهُ في هذا البحث، ولكن لا بُدَّ قبل انتهاء الحديث عن الغزل النجفي أنْ نختمهُ بالحديث عن شاعرٍ نجفيٍّ عاشق اشتهرَ بقصَّة حُبٍّ حقيقيَّة أكَّدَتها كلُّ المصادر التي ترجمت له وخلَّد حُبَّه في شعره[٣٢]، وهو الشاعر عبَّاس مُلا علي النجفي (١٢٤٤-١٢٧٤هـ)، أو (الشاعر العاشق) كمَّا سمَّاه الدكتور محمَّد مهدي البصير[٣٣].

ولكن لو تركنا روايات المصادر والأخبار، ورجعنا إلى ديوانه، لوجَدنا أنَّ الرجلَ يُعبِّرُ عن حُبِّهِ ولوعتهِ بعباراتٍ صريحة، لنسمعه وهو يتململُ، ويذكرُ ما يُعانيهِ من ألم الشوق وصعوبة الكتمان حين يقول

إلام تسـر وجـدك وهـو بـادٍ وتلهـج بالسـلو وأنـت صـب
وتخفي فرط حبك خـوف واشٍ وهل يخفـى لأهـل الحـب حـب
ولولا الحب لم تَـكُ مسـتَهاما على خـديك للعبـرات سـكب[٣٤]

وفي قصيدةٍ أخرى يتضـرَّعُ فيها للحبيبة أنْ تتعطَّفَ عليه وتعوده بعد أن انقطَعَتْ عنهُ وصار طريحَ الفراش، يقولُ في قسمٍ منها:

ما الذي ضرك لو عـدت فتـى عد أيـام اللقـا يـا مـي عيـدا
وتعطفـــت علـــى ذي أرق لم تـذق بعـدك عينـاه الهجـودا
هل لأيـام النـوى أن تنقضـي ولأيـامٍ تقضـتْ أن تعـودا
شَدَ ما كابدتُ من يـومِ النـوى إنـه كـان علـى قلبـي شـديدا

لـم يـدع بيـنكم لـي جلـدا ولقد كنت على الـدهر جليـدا[٣٥]

ولا أستطيعُ أنْ أختمَ الحديثَ عن هذا الشاعر العاشق قبلَ أنْ أثبتَ له بعضَ الأبيات من قصيدته التي اشتهرَ بها وخاطب بها حبيبته، وسَطَّر فيها ما كانَ يُعانيه من ألمٍ ويُكابدهُ من شوقٍ، ثمَّ يُعاتبها على القطيعة التي يبدو أنَّه خاطبها بها وهو على فراش المرض الذي أدَّى إلى وفاته عشقًا[٣٦]، إنَّها رسالةٌ كشفَ الحساب التي يلجأ إليها المُحبُّون حين تعجزُ الوسائلُ وتتقطَّعُ الحِيَلُ وتضيقُ الحياة، لنسمعه يُخاطبها بهذا النغم الحزين والنشيج الباكي ممَّا قلَّ نظيرُهُ في الشعر العراقي في غير النجف، قال:

عديني وامطلي وعـدي عـديني وديني بالصـبابة فهـي دينـي
سلي شهب الكواكب عن سهادي وعن عـد الكواكـب فاسـأليني
صـلي دنفًـا يحبـكِ أوقفتْـه نواكِ على شفا جـرف المنـون
أما وهوى ملكـت بـه فـؤادي ولـيس وراء ذلـك مـن يمـين
لأنت أعز مـن نفسـي عليهـا ولست أرى لنفسي مـن قـرين
أمـا لنـواكم أمـد فيقضـى إذا لـم تقـض عنـدكم ديـوني
وتعـذلني العـواذل إذ تراني أكفكف عارض الدمع الـهتون
أعاذلتي دعـي عـذلي وذوقـي بهـم مـا ذُقتُـه ثـم اعـذليني
بنفسي من وفيت لـها وخانـت وأين أخو الوفاء من الخؤون[٣٧]

شيوع روح الفكاهة والمداعبة والمساجلات الإخوانيَّة:

قُلنا: إنَّ النجفيِّينَ حينَ أُبعِدوا عن المُشاركة في الحياة العامَّة، شعروا بفراغٍ

وسأم، فصاروا يُزجونَ أوقات فراغهم باصطناع الحبِّ وقصائد الغزل وافتعال مجالس الخمر والندمان ممَّا ليس له نظيرٌ في بيئةٍ عراقيَّة أخرى في غير النجف.

ولعلَّ سريان روح الفكاهة وتلقُّف النكتة واقتناص الطريفة والنادرة في النجف ممَّا يُؤكِّد تميُّزَها في هذا الاتِّجاه دون غيرها من مدن العراق.

فمن ذلك مثلاً ما نقله (جعفر الخليلي) في كتابه (العوامل التي جعلت من النجف بيئة شعريَّة/ ٤٠): من أنَّ شخصاً من أهل اليسار يعود من سفر وينثر في مجلسه الخاص وبين جمعٍ من أصدقائه الأدباء عدداً من الخواتيم التي جاء بها معه وقال لمن حضر من الشعراء: أنْ ليسَ لأحد منكم ينتقي خاتماً ما لم يدفع ثمنه شعراً مُرتجلاً، فصار كلُّ واحد منهم يقول البيت أو البيتين فيه نكتة، ثمَّ ينتقي الخاتم الذي يريده، فكانَ ممَّا قال الشاعر (عبد الحسين الحِلِّي) مُستعملاً التورية:

ألقى الخـواتيم لنـا فـانتَثَرتْ	حتـى تنافســنا عليهــا معــه
فلا تَسـلْ عنـا فكُـل واحـدٍ	أدخـلَ فـي خاتمـهِ إصـبعه[٣٨]

إنَّ هذه النادرة على ما فيها من مجون، فإنَّها تُمثِّلُ لونًا من الفكاهة والهزل، أمَّا الشاعر (جواد الشبيبي ١٨٦٢- ١٩٤٤م) فقد ذُكرَ عنهُ أنَّهُ كانَ يرصُدُ النُكتةَ والنادرة، وقال عنه جعفر الخليلي: ((إنَّ نوادِرَهُ من الكثرة بحيث تستوعبُ مُجلَّدات لو تصدَّى لجمعها أحد))[٣٩].

ومن أطراف مُداعباته مزاحُهُ مع صديقه الشيخ جواد عليوي الذي تزوَّجَ وقد تجاوزَ الثمانين من عمره، فهنَّأهُ بهذه الأبيات الهازلة:

حصانُك من بعد الثمانين صاهلٌ	فمن ذا يجاريهِ ومـن ذا يطـاولُ
وسائلةٍ مـاذا تُحـاولُ نفسـه	فقلتُ لها فتح الحصـون يحـاولُ

فقالت: أبالسـيفِ الـذي هـو وما سيفه في الـروع إلا حمائـلُ
ومن عجبٍ أن الصياقلَ لم تكُن تُعالجـه بـل عالجتـه الصـيادلُ

وبعد أيَّامٍ من زواج الشيخ عليوي تزوَّج إبراهيم اطيمش وكان هو الآخر شيخًا مُسنًّا، فاغتَنَمَ الشبيبيُّ الفُرصةَ ثانيةً، وقال:

أتـــاك الصـــاهلُ الثـــاني عقيــــــب الصـــــاهل الأولْ
أردنــــا منــــه إمهـــالاً علـــى الوثبـــةِ فاســـتَعجلْ

وحينَ تزوَّجَ عبد المحمَّد زاير دهام على هذا النحو من الفارق في السنِّ، نظمَ الشبيبي أبياتًا أخرى على غرار الثانية افتتحها بقوله:

أتـــاك الصـــاهلُ الثالـــث .... إلخ

ولكن حينَ أقدم المرجعُ الديني (السيد أبو الحسن) على ذلك النحو من الزواج، انفجرَ الشيخُ الشبيبي ساخرًا...

أتـــاك الصـــاهلُ الرابـــع فهـــن الشـــرع والشـــارع
ثمـــــانون لعشـــــرينَ فـــأين القـــدر الجـــامع(٤٠)

ومعروفٌ أنَّ (القدر الجامع) هو من مصطلحات الفقهاء وأهل العلم، وإذا عرفنا أنَّ السيِّدَ أبا الحسن كانَ المرجعَ الديني الأعلى حينذاك، أدركنا خُطورةَ الشبيبي وجُرأته، فشدَّة تعلُّقِه بالنادرة حيثُ صادَفها..

ومن مظاهر حُبِّ الفُكاهة والنُكتة لدى النجفيِّين أنَّهم كانوا يصطنعون الهزل والنكتة والمقالب حتَّى في مجالس العزاء فمن ذلك مثلاً أنَّ مجموعةً من الأُدباء النجفيِّين اتَّفقوا على مُعاكسة الشاعر حيدر الحِلِّي والحِلِّيينَ الذين كانوا

معه حينَ كانَ يُنشدُ قصيدته البليغة في تأبين (السيد مرزة جعفر القزويني، ت ١٢٩٨هـ) في النجف في حفلٍ من أدباء النجف والحِلَّة، والتي مطلعُها:

قد خَطَطنـا للمعـالي مضـجعا ودفنـــا الـــدين والـــدنيا معــــا

لكنَّ النجفيِّينَ اتَّفقوا ألاَّ يستعيدوا بيتًا واحدًا منها على ما تعارفَ الناسُ عليه في مثل هذه المُناسبات؛ ليغضبوا السيِّدَ حيدر والحِلِّيينَ الذين كانوا معه، وقد اغتاظ الحِلِّيونَ من ذلك الصَمت المُتعمَّد الثقيل غيظًا شديدًا إلى درجة لم يستطع معها الحِلِّيون والسيِّد حيدر احتمالاً، فما أنْ أنهى قصيدته حتَّى غادروا الحفلَ غاضبينَ، ولكن لحقَ بهم بعضُ النجفيِّينَ يسترضونهم ويعتذرونَ منهم[٤١].

وإذا كانَ النجفيُّونَ يترصَّدونَ النُكتة في مجالس العزاء، فهم في مجالس الدرس أكثر، ومن أجمل ما يُساق في هذا الباب، ما صادف خلال الدرس النحوي حينَ كانَ السيِّد محمد سعيد الحبُّوبي يُحاضرُ في طُلاَّبه عن بعض الأدوات الداخلة على الأفعال ومعانيها حين قال: إنَّ (قد) إذا دخلَت على (الفعل المضارع تفيد "التقليل") فاهتبلَ أحدُ طُلاّبه النُبهاء الظُّرَفاء الخُبَثاء، هذه الفرصة، وسأل أستاذَهُ بكُلِّ أدبٍ وخشوع: (وماذا تفيد "قد" إذا دخلت على "الفعل الماضي" يا سماحة الأستاذ) فأجابه السيِّد الحبُّوبي على الفور: (ما شربتُها وجدِّي)، فإذا عرفنا أنَّ ذلك التلميذَ المُشاغب قصدَ بذلك قولَ أُستاذهِ الحبُّوبي في إحدى مُوشَّحاته:

قد شَرِبتُ الخَمر لكـن كمُلمـاك ما رأَتْ عينـي ولا ذاقَ فمـي[٤٢]

أدركنا مبلغَ ترصُّد النجفيِّينَ للنُكتة والنادرة التي تأصَّلتْ فيهم حتَّى في ساعة الدرس والجدِّ، حين نعلم أنَّ (قد) إذا دخلَتْ على الماضي

تفيد (التحقيق)..

وبعد، فأمثلة (الفكاهة والنكتة وحبّ المُداعبة وشعر المُساجلات) كثيرةٌ جدًّا في النجف، ولكنَّنا نكتفي بهذا القدر من الإيجاز..

كثرة شعر الخمر وجمال صوره:

ومن المظاهر الأخرى التي دلَّتْ على سريان روح الفُكاهة واللهو في النجف كثرةُ قصائد الخمر وجمال صورهِ، التي شاعت في الشعر النجفي في وصفها ووصف مجالسها وأشكالها وكؤوسها ومذاقها وآثارها في النفس وفي الجسد، على الرغم ممَّا عُرِفَتْ به النجف من قداسة ودينٍ وما عُرِفَ عن المجتمع النجفي من أنَّهُ مُجتمعٌ مُحافظٌ ورزين، والسُّؤال هو: كيف إذن تسنَّى لشعراء النجف من تأليف وإنشاد هذا الكمِّ الهائل من شعر الخمر، وفي وصف (أُمِّ الكبائر) والتغزُّل بها والتشوُّق لها ولمجالسها في ذلك المُجتمع الجادِّ المُحافظ؟

الجواب: هو أنَّ الناسَ عندما شعروا بفراغٍ كبيرٍ، ويأسٍ من المُشاركة في الحياة العامَّة، اتَّجهوا إلى اللهو البريءِ حين اتَّسعتْ مجالسُهم الأدبيَّة ودواوين الأُسَر، فاحتاجوا إلى ما يُلهيهم ويشغل أوقاتهم، فاصطنعوا مجالس الخمر هذه وأحاديث السُقاة والنُّدمان، يأتونَ بها في مُقدِّمات قصائد المديح والتهنئة ومناسبات الأفراح؛ لذلك ندرتْ أو انعَدَمتْ قصائدُ الخمر المُستقلَّة، وهي لم تأتِ إلّا تقليدًا أو مُحاكاةً للأدب العربي القديم عندما كان الشعراء يفتتحونَ قصائدهم بالمُقدِّمات الغزليَّة أو الخمريَّة، ومثلما قال المُتنبِّي: (إذا كانَ مدحٌ فالنسيبُ المُقَدَّمُ)، وقد ندرَ من شعراء النجف في هذه الحقبة مَنْ عاقَرَ الخمرةَ حقيقةً، ولكنَّهُ يمكنُ أنَّ بعضهم حضرَ بعض مجالسها أو حاموا حولها، وقرأوا عنها في شعر الأقدمين وعرفوا منهم بعض أوصافها وآثارها وأسرارها، فنظموها كؤوسًا وسُقاةً ومساحب ومقاصف وخمَّارين، وقد جاء وصفُها –

على الأغلب- في صدور قصائد المديح والتهنئة والأفراح – كما ذكرنا- إلّا أنَّ تلكَ المُقدِّمات صيغَتْ بأسلوبٍ رشيقٍ وخيالٍ عذبٍ ومعانٍ طريفة، هذا فضلاً عمَّا عُرِفَ به النجفيُّونَ من حُبٍّ للظرف وميلٍ للمُفاكهة، وما خمريَّاتُ الشاعر الحبُّوبي - مثلاً- في قصائدهِ ومُوشَّحاته وما فيها من روعةٍ وفنٍّ بالجديد الذي أذيعه بين الناس.

ولا أستطيعُ هنا أنْ أسوقَ أمثلةً كثيرةً من شعر الخمر التي زخرتْ بها دواوينُ الشعر النجفي في تلك الحقبة لكثرتها وتنوُّعها، إلّا أنَّني – ولغرض تبيانِ روح الظرف والفكاهة بوجود شعر الخمر في قصائد شعراء النجف- سأحاولُ أنْ أجتزأَ بعضًا منها ممَّا حوى طرافةَ معنًى ولطف خيال وجمال أسلوب وحسن تصوير ورشاقة لغة وخفَّة إيقاع، ولا أستطيعُ هنا أنْ أبدأَ بغير (الحبُّوبي) صاحب المُوشَّحات الخمريَّة الشهيرة، التي حوت جمال تصوير وطرافة معنًى ولطف خيال، منها قولُهُ في قصيدةِ تهنئة:

شمس الحميا تجلـتْ فـي يـد	فشع ضوء سـناها بـين آفـاقي
سترتها بفمي كي لا تـنم بنـا	فأججتْ شـعلةً مـا بـين آمـاقي
تشدو أباريقُها بالسكب مفصحةً	بشـرى السـليم فهـذي رقيـةُ

ومنها قولُهُ في مُوشَّحتهِ الشهيرة التي مطلعُها:

ِبي يا ساقي الطـلا إبـدأ أولا	وبِي اخـتِم دورهـا مـن قرقـفِ

التي منها قولُهُ:

كُـن لـدى جلوتِهـا منتبهـا	فعلـى تكييفهـا طـالَ اللجـاج
أهي بالكـأس أم الكـأس بهـا	إذ بدتْ صِـرفًا فأخفاهـا المِـزاج

فهمـا شـيء بـدا مشـتبها أم هما شـيئان: خمـر وزجـاج
لا الطلا كأس ولا الكأس طـلا عـزب الأمـر علـى المعتسـف

إلى آخر هذه المُوشَّحة النفيسة(٤٤).

وأقـول: يقينًـا أنَّ السـيِّدَ الحبُّـوبي لم يشـرب الخمـر، اسـتنتاجًا مـن سـيرتهِ وحياته وتراجمه، إلّا أنَّني لا أستبعدُ أنَّه حضرَ بعض مجالسها أيَّام شبابهِ في بغداد، ورأى شكلها وعرف أوصافها ووقف على بعض آثارها في الشاربين، ثمَّ كانت الشاعريَّةُ الفَذَّة واطِّلاعُهُ على تراثها في الأدب العربي القديم، والتي ساعدت على إيجادهِ قريحةٍ فَذَّة، امتَلَكت الأداة فأحسَنت الرسم.

وأمثلةُ شعر الخمر المُتميِّز في النجف كثيرة، نذكرُ قسمًا آخرَ منها.. فمنها ما قاله السيِّد إبراهيم بحر العلوم، وهو يتغنَّى بجمال الساقي وجمال الكأس وطعم الشراب، واختلاف ألوانها:

أمـديرها والعـيشُ أغيـد حمـراء أو صـفراء صـرخد
قُـم فاجلُهـا عقيلـةً صبغَتْ لُجين الكـأس عسـجد(٤٥)

أمَّا الشاعر (مهدي حجي) فإنَّه يضيقُ بتحريم الخمر، فهو لا يُطيق عنها صدًّا، ولا يملك عنها بُعدًا، ولا يقدرُ عليها فراقًا؛ لذلك هو يطلبُ سقايتها حلالاً كانت أم حرامًا، لنسمعه يقول في موشَّحةٍ له:

لائمـي بـاللهِ خـل العتَبـا واسقِني الصهبا حـلالاً أم حـرام
ثم غني باسـمِها لـي طربـا فهي مولى مذ أنا كُنـتُ غـلام(٤٦)

ويستغرب أحد الباحثين الأكاديميِّين من جرأ هذا الشاعر النجفي وجهره بحبِّ الخمرة، ويقول: ((إنَّ هذا الوشاح يبدي تحدِّيًا تجاه تحريم الخمر، ويبدو

غريبًا في مجتمعه النجفي المُحافظ))[٤٧]، لكنَّني لا أرى في سلوك هذا الشاعر أيَّةَ غرابة، فهو ليس أوَّلَ شاعرٍ نجفيٍّ يجهرُ بمدح الخمر أو يتوقُ إليها؛ لأنَّه نفذَ إليها من خلال التقليد العام الذي أباح للشعراء مدح الخمر ووصفها وإطراءها من غير استنكارٍ أو اعتراض، إنَّما هي مسألةُ فراغٍ وتزجيةُ الوقت، ومزجٌ من الشعراء بين غرضي الغزل والخمر في كثيرٍ من قصائد التهنئة بالعودة من الحج، ومع ذلك فالمهنِّأوون والحُجَّاج القادمون توًّا من البلد الحرام، والمتَطهِّرون بفريضة الحج لا يستنكرون ما يسمعون ولا يقترحون على الشعراء وهم يفتتحونَ قصائدهم بالغزل أو الخمر؛ لأنَّ الشاعرَ قطعًا لا يدعو إلى (أمّ الكبائر) حقيقةً، ولو دعا إلى ذلك لسخط عليه الناس وأوَّلُهم أهلُ العلم والحُجَّاج المُتطهِّرون.

شعر اللهو ووصف مجالس الأنس:

ومن مظاهر الفُكاهة واللهو في النجف كثرةُ أدب الهزل والدعابة، ووصف مجالس الأُنس وما يُسمَّى بشعر الشراب والطرب الذي وجدناه يتَّسمُ بجمال الصورة وحلاوة النُكتة ولطف التعبير، وهذا النوع من الأدب كثيرٌ في الأدب النجفي في هذه الحقبة، نذكرُ منه على سبيل المثال قصيدة الشاعر إبراهيم بحر العلوم وهو يتذكَّرُ فيها مجالس أُنسٍ له سلفتْ وأيَّام طربٍ عاشها تقَضَّتْ، ويتحدَّثُ عنها حديثَ المشوق المُستهام المُتلهِّف لعودتها، ومن تلك الأيَّام ليلةٌ له قضاها على شطِّ دجلة في بغداد مع أصحابٍ له وقد خرجوا جماعةً يطلبون النزهة والشراب، واصطحبوا معهم الكأس والنديم فيحيون ليلةً صاخبةً مفعمةً بالأُنس والشراب والطرب وسهروا الليلَ كُلَّه حتَّى أصابهم الإعياءُ والتعب بعد شرابٍ كثير حتَّى جمع كلُّ واحدٍ منهم كثيبًا من الرمل اتَّكأ عليه وأراح عليه رأسه، وقد غمضت عيونهم نصف إغماضة وتهدَّلت أطرافهم وشعروا ببردٍ شديد حتَّى انضمَّ بعضُهم إلى بعض، وهكذا يستمرُّ بحرُ

العلوم في سرد حكاية تلك الليلة بأسلوبٍ قصصيٍّ أخّاذ، وعباراتٍ سلسة ولغةٍ جميلة وصور ممتعة، والقصيدة طويلة، نجتزئُ منها قوله:

أُخي هل راجع ليـلٌ فينظمنـا ... بشط دجلـةَ نظـم العقـدِ إخوانـا
بمجلس مشرف الأطراف مرتفع ... عالٍ تطولُ بـه الجلّـاس كيوانـا
يا حي دجلةَ والجرفان قد طفحا ... فيضا يسيلُ على الرضراض عقيانا
لو كنت تطلبنا والملتقى كثـب ... لمـا طلبـتَ حيـاةً دون لُقيانـا
مطرحين على الأنفاء من سهرٍ ... نثنـي النمـارقَ أنقـاء وكُثبانـا
يجثو بنا الغمـض والأشـواقُ ... للهـو حينًـا وللإطـراب أحيانـا
نهب نبتدر اللذّاتِ مـا عرقَـتْ ... مثنى فمثنـى ووحـدانًا فوحـدانا
يضمنا الشوقُ ضم البردِ لابسه ... حتـى تلابـس أقصـانا بأدنانـا
حتـى إذا الكلـب أخفـى مـن ... والطير غـرد والنـاعور غنانـا
قُمنا وقام رهيف القـد أهيفـه ... كسلان يسحب فوقَ الأرض أردانا
لا يملك الخطو إلّـا أن نُزجيـه ... كمـا تُزجـي صـحاةُ الشـربِ

ولغرض (الموازنة) نحاول أنْ نفتِّشَ عمَّا في أدب المُدن العراقيَّة الأُخر، مثل هذا الظرف وتناوله لموضوعات الغزل والفكاهة مثلما رأينا في النجف؟ أنجد مثل هذا الشعر في هذه الحقول الأدبيَّة النجفيَّة الأربعة، ومن الكثرة والصدق ولطف التعبير وجمال الصور في مدن العراق الأخرى ولاسيَّما في بغداد أو الحلّة أو الموصل مثلما وجدنا في الأدب النجفي؟

فلو عدنا إلى دواوين (شعراء بغداد) وقرأنا ما فيها من شعر الغزل، لما تلمَّسنا فيه من صدق التجارب وتأجُّج الأشواق وجمال الصور ما نجدهُ لدى المُحبِّين من الشعراء أو مثلما وجدنا في شعر النجف الحافل بها، إنَّما نجدهُ في

أكثره نُظِمَ لغرض المُسامرات وتزجية الوقت حين يجتمع الشعراء للهو والخمر والسمر[٤٩]، صحيحٌ أنَّ في بعضهِ طرافة صور وحُسن سبك، إلّا أنَّه يفتقد عنصر العاطفة وصدق الإحساس؛ لذلك طغت فقاعات الخمر فوق قصائد الغزل، فأبانت عن جُلّاسٍ يشربون لا عُشاقَ يتعذَّبون، ولعلَّ من أجود الغزل البغدادي أبيات الشاعر محمّد حسن كبَّة حين يقول :

مـا لقلبـي تهـزه الأشـواقُ ... خبرينـا أهكـذا العشـاقُ؟
كـل يـومٍ لنـا فـؤاد مـذاب ... ودمـوع علـى الطلـول تُـراقُ
عجبا كيفَ تدعي الورقُ وجدي ... ولـدمعي بجيـدها أطـواقُ[٥٠]

وقولهُ في أبيات أخرى

نحن قـوم إذا نظرنـا صـبونا ... وإذا العشـقُ ملنـا مـا سـلونا
لم نرح من هوى معـافين إلـا ... وعلـى جمـرتين منـه غـدونا
جئتُ مستعديا من الحب قلبـي ... فـإذا القلـب للصـبابةِ عونـا
فتنتنـا بحسـنها وجنـاتٌ ... ككؤوس الطلا صـفاء ولونـا[٥١]

هذه أمثلة من غزل الطرب – إنْ صحَّ التعبير- لا ترقى بحال من الأحوال إلى غزل النجف وصوره وعاطفته.

أمَّا الشاعر البغدادي (عبد الغفار الأخرس) فإنَّه يتغزَّلُ في قصيدةٍ له بغلام هامَ به حُبًّا، كان قد حُبِسَ، فسكب في أبياتها كلَّ عواطفه حين قال:

يشق علي أن تشـقى بحـبس ... وأن تبقـى لـرش أو لكـنْس
تكبلُ بالحديـد وكنـتُ أخشـى ... محـاذَرةً عليـك مـن الـدمقس
وكنتُ أغار إن رمقتـك عـين ... تلوثُ عـرض صـاحبها بـرجس

تقول سلوتَني ونَقضتَ عهـدي ... وخُنْتَ مـودتي ونَسـيتَ أُنسـي
معـاذ الله أن أسـلوك يومـاً ... ويومي في غرامـك فـوق أمـس
تُحدثُ عن هواك دموع عينـي ... بألسـنةٍ مـن العبـرات خـرس
يجول عليك طول الليل فكـري ... وأُصبح فيـك محزونـاً وأُمسـي
وأذكر ما مضى من طيب عيش ... فآكل راحتي وأعـض خمسـي(٥٢)

وفي الحقِّ أنَّ في هذه القصيدة عاطفةً ظاهرةً وغزلاً حقيقيًّا، إلّا أنَّها من جهة أخرى تُمثِّلُ حالةً مرضيَّةً في العاطفة التي جنحت إلى الهيام بغلام.

فإذا كانت بغداد وما فيها من مباهجَ ومن حُرِّيةٍ في اللهو وخروج النساء إلى الشوارع والأسواق، وسفور الأجنبيَّات فيها منهنَّ، على هذا البعد من الغزل الأصيل وعلى هذه الدرجة من الافتقار إلى العاطفة (فالحلَّة) إذن في هذا الفنِّ أكثرُ فقراً وأكثرُ بُعداً عن الأصالة وأشدُّ تكلُّفًا فيه، فقد مرَّ بنا أنَّ الحِلَّةَ كانت مدينةً منكمشةً على نفسها، تداري همومها بالرثاء والبكاء ومالت إلى حياة الجد والحزن، فطبيعيٌّ أنَّ مثلَ هذه الحياة الحزينة الكئيبة لا يمكنُ أنْ تنتجَ غزلاً أصيلاً أو هزلاً جميلاً أو فكاهةً مستملحةً... فعلى كثرة ما في دواوين شعراء الحِلَّة من شعر الغزل لكنَّنا يندر أنْ نجدَ فيه غزلاً يحوي عواطف حقيقيَّة أو أشواقًا صادقة أو تجاربَ ذاتيَّة في الحب، إنَّما كانَ في معظمه تقليداً لما أُثِرَ من صور الغزل المُتكرِّرة، وترديداً رتيبًا للشعر القديم وإنَّه في أكثرِه يفتقدُ الصدق والأصالة..

فالشاعرُ – حيدر الحِلِّي- أشهر شعراء الحِلَّة في هذا العصر، يعترفُ أنَّه لم يحب في حياته ولم يعشق، وإنَّ كلَّ ما قاله من غزل وما ادَّعاهُ من صبابة وغزل كان كذبًا، وإنَّ حديثه عن الهوى غيرُ صادق، حين يقول:

يـــا خليلـــي علـــى ذِكـــر المقـــلْ
خلتمـــا همـــتُ ومـــن يســـمع يخـــلْ
لا ومـــا فـــي الـــرأس مـــن شـــيبي اشـــتعلْ

إنمـــا كـــان غرامـــي كـــذبا وحديثي في الهوى لم يصدق[٥٣]

ثمَّ يُؤكِّد كذبَ مزاعمهِ في الغزل بنفسهِ، بل إنَّ الرجلَ ليُقسِمُ أنَّهُ لم يشرب يومًا في حياتهِ، ولم يعشق حين يقول:

خليلي ما للكأس كفـي ولا فمـي ولا كبـدي للناهـداتِ العواتـق
نسبتُ وما بي يعلـم اللهُ صـبوةً ولا اجتـذبتْ أحشـاي بعـض

أمَّا الشاعر (صالح الكوَّاز) – وهو من كبار شعراء الحِلَّة- فأنَّه يعتقد أنَّ الذي يعشق ويُطيع عشقهُ وهواه فهو (حمار) – كذا- كما يقول:

وليلةٍ بـت والمحبـوب معتنقـي وللتقى والهوى في القلبِ معترك
فقُلتُ للنفس: مهلاً إن من يطِـع ـهوى حمار ومن يعص الهـوى

ولنفتِّش مرَّةً أخرى عن العاطفة لدى شاعرٍ حليٍّ آخر حين يتغزَّل، إذ يقول (محسن العذاري الحِلِّي) مُتغزِّلاً:

يـــا راشـــقَ القلـــبِ منـــي أصـــبتَ فـــاكففْ ســـهامك
ويـــا كثيـــر التجنـــي قطعـــتَ حتـــى ســـلامك
بكيـــتُ دالاً وميمـــا لمـــا تأملـــتُ لامـــك[٥٦]

فهل نجد في أبيات الحِلّي والكوّاز والعذاري أثرًا لعاطفة الحُبّ أو جمالاً في صورةٍ أو طرافةً في معنى، وهل من أصالةٍ أو عاطفةٍ في أبيات (الكوّاز) – مثلاً- وهو يسمُ المُحبّين بأشنع السمات!!.

أمّا في (الموصل) فقد صعُبَ علينا الحصول على أمثلةٍ جيّدة من شعر الغزل أو فيها عاطفة، سوى تلك التي جاءت في مقدّمات قصائد التهنئة والمديح ببيتين أو ثلاثة أبيات أو قد تزيد قليلاً، لكنّها في كلّ الأحوال لا تكتسي أردية الغزل أو حُلل الفُكاهة أو زخارف اللطافة، وذلك في رأينا تابعٌ إلى الطابع الجاد الذي كانَ يحكمُ المجتمع الموصلي وإلى سيادة التيّار الديني من جهةٍ أخرى.

وللموازنة نذكرُ أمثلةً قليلة من جيّد الغزل الموصلي، منها قولُ الشاعر (حسن عبد الباقي) وهو يستعيرُ هذه التشبيهات التقليديّة من تراث الغزل العربي من تشبيه جبين المحبوبة بالبدر وذوائبها بالليل وهكذا، حين يقول:

هي الشمس والبدر المنير نجوم أضاءتْ والليالي الذوائب

تغيب وتُبدي الصبح تحتَ فما هي إلا مشرقٌ ومغارب[٥٧]

أمّا الشاعر (محمّد بن حمد الموصلي) فلا يختلف غزله عمّا سبقه من غزل حسن عبد الباقي بإعادةِ المعاني التقليديّة المُكرّرة والمُتداولة ومُستعيراً لِفَتاتِهِ ألفاظ الشمس والبدر والفجر والماء، حين يقول:

ترامى لنا من نور مفرقها البدر وقام لنا في الليل طُرتُها الشعر

فتاةٌ أرانا مطلع البدر وجهها وقامتْ مقام الشمس إذ بعد الفجر

ولما علا ماء الحيا جمر خدها تعجبتُ كيف الماء خالطه الجمر

فقد قذفت فيـه بعنبـر خالهـا فضاع له عرفٌ وفاح له نَشْـر[٥٨]

ولو استعرضنا المنشورَ من الغزل الموصلي، لَمَا وجَدنا شيئًا جديدًا عمَّا ذكره حسن عبد الباقي ومحمَّد بن حمد؛ لأنَّ ما ذكرناهُ لهما هو من جيِّد الغزل الموصليِّ في هذه الحقبة إنْ لم يكنْ أجودَهُ.. فإذا كان الأمرُ كذلك، فيقينًا أنَّ القارئَ بمقارنةٍ بما ذكرنا من أمثلة الغزل الموصلي وقبلها ممَّا ذكرناهُ من غزل بغداد والحلَّة بما قرأ من شعر الغزل والخمر والفكاهة في النجف بما حوت أمثلتُهُ من حُسنٍ وطرافة وصدق وصور وخيال يكون القارئُ على قناعة تامَّة أنَّ النجفَ كانت في هذه الحقبة هي رافعةٌ للواء الغزل والفكاهة والهزلِ دون منازع، وإنَّ عجلات الغزل في كلٍّ من بغداد والحلَّة والموصل الضالعة لم تستطع أنْ تلحقَ بقطار غزل النجف السريع، وذلك كلُّهُ من أثر البيئة النجفيَّة التي يسَّرتْ لشعرائها الإجادةَ والأصالة والكثرة ممَّا لم يتوافرُ لمدينةٍ عراقيَّةٍ أخرى...

Abstract

Almost brings together historians of literature and the researchers that the literature is the son of the environment, or is the product of the interaction of events with the environment, it is Astabg colors influenced by the trends and then affect them, and stresses of modern science this even makes the environment of conflict factor genetics in its impact; because each environment advantages and characteristics that printed literature, nature and leave it their mark and clear, no matter Astt writer in its uniqueness and the tyranny of the same in literature, you will not be immune from being influenced by including him in one way or another; because the literature mirror reflected the aspects of the environment or in other words, that literature is an expression or a disclosure of what is raised by the phenomena of public life in the same writer.

هوامش البحث ومصادرهُ

(١) انظر: د. شكري فيصل: (مناهج الدراسة الأدبية)، ص ١٥٨، ط دمشق، ١٩٦٥م، ود. يوسف عز الدين في كتابه: (خيري الهنداوي) ص ٢٦، ط بغداد، ١٩٧٧م، وجعفر الخليلي في كتابه: (العوامل التي جعلت من النجف بيئة شعريَّة) ص ٩، النجف ١٩٧٠م، وغيرهم.

(٢) البحث الأدبي، د. شوقي ضيف، ص٨٨، ط دار المعارف بمصر، ١٩٧٢م.

(٣) انظر نماذج منها في: (تاريخ المماليك "الكولة مند" في بغداد) سليمان فائق، ترجمة: محمد نجيب أرمنازي، ص٤٣- ٤٤، مط المعارف، بغداد، ١٩٦١م، و(تاريخ العراق بين احتلالين)، عباس العزاوي، ٦/ ٢٢٩، ٢٣١، ٧/ ٤٩- ٥٦، بغداد، ١٩٥٤م، و(صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة) جعفر خياط، ١/ ٢٧٣- ٢٧٨، مط دار الكتب ببيروت، ١٩٧٦م، و(الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر)، إبراهيم الوائلي، ص ٩٢- ٩٤، ط٢ .

(٤) الشعر السياسي العراقي، ص ٤٠ .

(٥) لقد لمعت بعض أسماء أبناء بغداد من أبناء هذه الطبقة من العسكريين في أفق السياسة العليا، ومنهم محمود شوكة باشا – البغدادي الأصل الذي قاد الانقلاب العثماني ضد السلطان عبد الحميد سنة ١٩١١م.

(٦) غرائب الاغتراب، أبو الثناء الآلوسي، ص ٢١١، بغداد، ١٣٢٧هـ.

(٧) ديوان صالح القزويني البغدادي، مخطوط، الورقة ٢٢٠، موجود في مكتبة الآثار ببغداد، تحت رقم ١٨٩٢.

(٨) الطراز الأنفس من شعر الأخرس، هو ديوان عبد الغفار الأخرس، ص ١٩٨، ط استانبول، ١٣٠٤هـ.

(٩) الشعر السياسي العراقي، ص ٧٠ .

(١٠) ديوان التميمي، صالح التميمي، ص ٥٢- ٥٤، ط النجف، ١٩٤٨م.

(١١) ديوان الفاروقي – عبد الباقي العمري، ص ٢٤٦- ٢٤٧، ط ٢، مط النعمان، النجف ١٩٦٤م.

(١٢) ينظر قوله في ديوانه الطراز الأنفس، ص ٣٠٦: (وإنّي لشيعيٌّ لآل محمّدٍ ....).

(١٣) ديوان الطباطبائي: وهو ديوان السيد إبراهيم بحر العلوم الطباطبائي، ص ١٠١، مط العرفان – صيدا، ١٣٣٢هـ.

(١٤) ديوان الطباطبائي: ٣٩، ١٠١، ١٨٩ .

(١٥) ديوان الطالقاني، ص ٤٣، مط الغري، النجف، ١٩٥٧م.

(١٦) ديوان محسن الخضري، ص ١٤٦، النجف ١٩٤٧م.

(١٧) انظر ديوانه، المط العلمية، النجف، ١٩٥٦م.
(١٨) انظر - مثلاً- ديوان الشاعر إبراهيم بحر العلوم ومصادر أخرى عنه.
(١٩) هو الشاعر عبّاس ملا علي النجفي.
(٢٠) نهضة العراق الأدبيَّة في القرن التاسع عشر، الدكتور محمد مهدي البصير، ص ٥٢، ط المعارف، بغداد، ١٩٤٦م.
(٢١) ديوان محمّد سعيد الحبوبي، ص ١٩٦، ط بغداد، ١٩٨٠م.
(٢٢) جاء في مقدمة ديوانه: ٢٥- ٢٧: إنَّ الحبوبي سافر إلى نجد في شبابه وأمضى هناك ثلاث سنوات حيث كانت أسرته تشتغل بالتجارة... وانظر عن أثر نجد في نفس الحبوبي وفي شعره – ديوانه ص ٧٢- ٧٣ .
(٢٣) ديوان محمد سعيد الحبوبي، ص ٧٦- ٧٧ .
(٢٤) الأعيان، محسن الأمين العاملي: ١٦/ ٢١٨- ٢٠٩، ط١، دمشق .
(٢٥) ديوان الحبوبي: ١٨٩- ١٩٠ .
(٢٦) ديوان الطباطبائي، ص ٧٣- ٧٤ .
(٢٧) الحصون المنيعة، علي كاشف الغطاء، مخطوط، مجلد ٢، الورقة ٢٥١ .
(٢٨) ديوان موسى الطالقاني، ص ١٢١، مط الغري، النجف ١٩٥٧م.
(٢٩) شعراء الغري، علي الخاقاني: ٣/ ١٩٥، النجف ١٩٥٦م.
(٣٠) سحر بابل، وهو ديوان جعفر كمال الدين الحلي، ص ٧١، مط العرفان، صيدا، ١٣٣١هـ.
(٣١) المصدر نفسه، ص ٣٠٩ .
(٣٢) من المصادر التي ترجمت له وذكرت قصّة عشقه، العراقيات – أحمد ورضا الزين: ١/ ١٥١، مط العرفان – صيدا، ١٣٣١هـ، ونهضة العراق الأدبية ٢٠٣- ٢٠٥، الأعيان: ٣٧/ ٤٠ .
(٣٣) انظر: نهضة العراق الأدبية، ص ٢٠٢ .
(٣٤) ديوان عباس ملا علي النجفي، ص ٢٧، المطبعة العلمية، النجف، ١٩٥٦م.
(٣٥) المصدر نفسه، ص ٢١ .
(٣٦) العراقيات: ١/ ١٥١ .
(٣٧) ديوان عبّاس ملا علي، ١٨- ١٩ .
(٣٨) العوامل التي جعلت من النجف بيئة شعرية، جعفر الخليلي، ص ٤٠، النجف ١٩٧٠م.
(٣٩) هكذا عرفتهم، جعفر الخليلي، ص ٥٨، مط الزهراء، النجف، ١٩٦٣م.
(٤٠) هكذا عرفتهم، ٦٦- ٦٧، وشعراء الغري: ٢/ ١٨٧ .
(٤١) نهضة العراق الأدبية، ٤٣- ٤٤، وشعراء الغري ٧/ ٢١٧ .

(٤٢) نهضة العراق الأدبية، ص ٤٥ .
(٤٣) ديوان محمد سعيد الحبوبي، ص ٢٧٢ .
(٤٤) ديوان الحبوبي، ٢٠٢- ٢١٥ .
(٤٥) ديوان الطباطبائي، ٧٥- ٧٦ .
(٤٦) شعراء الغري ١٢/ ١١٤ .
(٤٧) الموشحات العراقية، د. رضا محسن القريشي: ٢٣٠، بغداد، ١٩٨١م.
(٤٨) ديوان الطباطبائي، ٢٤٣- ٢٤٩ .
(٤٩) ذكر د. يوسف عز الدين في كتابه: (الشعر العراقي أهدافه وخصائصه) ص ٦١ (أنَّه كان لمحمد صالح كبة قصر على دجلة يجتمع فيه الشعراء للشراب والطرب) .
(٥٠) العقد المفصل، حيدر الحلي: ١/ ١١٥، بغداد ١٣٣١هـ .
(٥١) العقد المفصّل: ١/ ١١٧ .
(٥٢) الطراز الأنفس: ٢٤٥- ٢٤٦ .
(٥٣) ديوان السيد حيدر الحلي: ١/ ٢١٩، النجف، ١٩٥٠م .
(٥٤) ديوان السيد حيدر الحلي: ٢/ ٤٣ .
(٥٥) ديوان صالح الكواز، ص ١٢٣، النجف، ١٣٨٤ه.
(٥٦) شعراء الحلة، علي الخاقاني: ٤/ ٣٠٨، النجف، ١٩٥٤م.
(٥٧) ديوان حسن عبد الباقي العمري، ص ٤٣ .
(٥٨) غاية المرام في شعراء بغداد دار السلام، ياسين خير الله العمري، ص ٣٨٥، بغداد، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.